

الإسلام والتمييز العنصري

فضيلة الأستاذ الدكتور عوض الله جاد حجازي
رئيس جامعة الأزهر

تمهيد :

من خصائص الإسلام التي تفرد بها عن سائر الأديان ، أنه دين ذو طبيعة عالمية ، توجه بمبادئه وتشريعاته وتوجيهاته إلى « الإنسان » من حيث هو ، ضاربا صفحا عن عوارضه التي لا يملك حيالها دفعا . هادفا إلى جوهره وخصائصه التي امتاز بها عن سائر المخلوقات ، ذلك أنه ليس دين محلة ولا قبيلة ولا مقاطعة . كما أنه ليس دين قوم مخصوصين ، تميزهم عن سواهم سمات معينة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »^(١) وقوله تعالى « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا »^(٢) .

وإذا كان هذا هو شأن الإسلام فإن التصورات الخاطئة عن الإنسان ، - والتي تحركها نزعات غير طبيعية ، تلك التصورات التي تمنح لبعض البشر من الخصائص والمميزات ما لا تمنحه للآخرين ، وبناء على هذا التصور الخاطئ تنظم الإنسانية في سلم النظام الاجتماعي الدولي حسب ما تنتهي إليه تصوراتها ، أقول : إن هذه التصورات لا تقوم على أساس صحيح ، - ولذا فإن الإسلام يرفضها رفضا تاما . بل إن هذه التصورات في نظره تصورات جاهلية ، وإثارتها من جديد إنما يكون رجوعا بالإنسانية القهقري ، إنما هي رجوع إلى حيث كانت قبل أن تستظل بظل الإسلام الوارف وتستنير بنوره الساطع . وتعمل بتعاليمه النافعة ، التي تسعد كل من يعمل بها .

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .

وتبرز مسألة التمييز العنصرى - غالبا - فى ثنايا الحضارات المادية ، التى تجعل من المادة مقياسا لكل شىء . وترفض منطق الوحى والعقل اللذين يؤكدان ضرورة الحكم على الإنسان من حيث ماهيته وجوهره ، وإذن فهى مسألة تستهدف الاستغلال ، استغلال من يتصور أنه فوق غيره فى سلم البناء الإنسانى وأنه أعلى ممن هو دونه حسب تصوره ، يستوى فى ذلك الأفراد والجماعات والأمم والشعوب ، وتسقط هنا الحواجز الزمنية ، بحيث لا يمكن التفرقة بين المثيرين لهذه النزعة قديما ووسيطا وحديثا .

ومعالجة هذه المشكلة فى ضوء تعاليم الإسلام الحنيف إنما تأخذ شكلين ، كل منهما لازم للآخر ، الشكل الأول يتجلى فى : نظرة الإسلام إلى الإنسان والأسس التى قامت عليها هذه النظرة ، والشكل الثانى يتجلى فى : مقاومة الإسلام للأفكار والتصورات الخاطئة التى تحاول تشكيل الإنسان فى أوضاع اجتماعية بعيدا عن الحق والواقع ، والحكم عليه من خلال مظاهر وأشكال ، انتهى الحاكمون بها إلى أن تتخذ أساسا للحكم .

وسنحاول فى الصفحات التالية أن نعالج المشكلة كما تناوّلها الإسلام فى هذين الشكلين :

نظرة الإسلام إلى الانسان :

استحوذ «الإنسان» من حيث هو على كثير من خطاب الإسلام ، بل لا نكاد نعدوا الصواب إذا قلنا : إن الإنسان وسعاده فى دنياه وأخراه هو غاية الإسلام وهدفه الأسمى ، وكيف لا يكون كذلك وهو المخلوق الوحيد من بين سائر المخلوقات الذى أضاف الحق تبارك وتعالى خلقه إلى ذاته مباشرة ، كما نفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، كما جعله خليفة عنه فى الأرض ، «... فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين»^(٣) ، «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس

(٣) سورة الحجر الآية ٢٩ .

لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون^(٤) . كما أنه المخلوق المكرم بالعقل والإرادة والتمييز ، قال تعالى : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً^(٥) » ومن أجل ذلك كله جعل الحق تبارك وتعالى كل طاقات الأرض والسماء ، وما وجد فيها وما يوجد مستقبلاً يكون كله في خدمة الإنسان وترقيه « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور^(٦) » .

وكون الإنسان على هذه الشاكلة ، أى أنه أثر مباشر لله ، وأنه مكرم عنده يؤكد أنه واحد من حيث طبيعته وماهيته ، وكونه كذلك أيضاً يدل على عدم التفاوت في هذه الطبيعة والماهية ، ويقوى هذه المسألة أن افتراض التفاوت بين بني البشر من حيث الطبيعة الإنسانية ، والحقيقة الخلقية يؤدي بالضرورة إلى مجالات لا تليق بذات الخالق سبحانه وتعالى ، إذ أن تفاوت مراتب جنس الإنسان من حيث طبيعته إنما يكون لغرض أو مصلحة تقتضى ذلك ، ولا تتصور هذه المصلحة إلا لحساب الطائفة المختارة التي تميزت عن سواها ، وهذا يتنافى قطعاً مع طبيعة الذات الإلهية إذ أن أفعالها لا تعلل بغرض أو مصلحة ، لأنه سبحانه وتعالى فوقهما ، كما أن عدالته ترفض ذلك قطعاً ، إذ الكل من خلقه ، وسيادة عنصر على آخر يتنافى مع وحدة الخالق كما يتنافى مع عدالة الخالق جل شأنه .

من ثم رأينا القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة تؤكد أن قضية وحدة العنصر الإنساني ويلحان عليها إلحاحاً ، حتى تبرز في شكل يأخذ بالألباب والعقول ، ليكون ذلك أدعى إلى وأد النزعات العنصرية ، عندما تحاول أن تطل بقرنها من جديد ، يقول الله تعالى في تأكيد وحدة العنصر الإنساني « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم

(٤) سورة البقرة الآية ٣٠ .

(٥) سورة الإسراء الآية ٧٠ .

(٦) سورة الملك الآية ١٥ .

خبير^(٧) - ويقول سبحانه « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء... »^(٨) ومن خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع «... إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى ... » .

وفى تأكيد وحدة الطبيعة الانسانية فى أصلها وعدم تفاوتها - كما صرحت النصوص المذكورة - نرى الإسلام يسقط من حساب الإنسان كل الروابط والمؤثرات التى تحكم علاقته بأخيه ، بعيدا عن هذه الطبيعة ، ويضيف إلى هذا منهج الإعلاء بالقيم الإنسانية الرفيعة التى تنبثق من تلك الطبيعة ، ولذا نراه يرسم الطريق الصحيح ليلبغ الإنسان به مرتبة الكمال الإنسانى ، وذلك فى الصورة التى جاءت بها تعاليمه السمحة ، وكأنى بهذه القضية تتمثل أمام العقل فى صورة المقطع من الآية الكريمة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ومن الحديث الشريف « لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى » .

وفى ضوء هذه الصورة تسقط دعاوى الاستعلاء بكل صورها وأشكالها ونزعاتها وتبقى قضية وحدة الأصل مضافاً إليها ما حصله الإنسان من عوامل الهداية ، هى مناط الحكم فى نظر الإسلام ، وكأن الإسلام بهذا الموقف قد أزاح عن كاهل الإنسان أثقالا جساما من شأنها أن تحد من نشاطه الذاتى ، وتكبث لديه ملكات السعى والترقى فى السلم الإنسانى . وكأنى به أيضا يحدث تغييرا شاملا فى الروابط التى تقوم عليها العلاقات الإنسانية ، مما كان سائدا فى الجاهلية . وهذا التغيير ليس مرتبطا بظروف تاريخية معينة ، بحيث يمكن إعادة النظر فيه فى أى وقت ، ولكنه يقوم على أساس من وضع الأمور فى نطاقها الصحيح حتى يأخذ شكل المبدأ العام . وهكذا يكون شأن الإسلام فى معالجته لقضية من قضايا الإنسان .

(٧) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٨) أول سورة النساء .

ونلمح من خلال بعض النصوص التي ذكرناها اعترافها بالأمر الواقع من اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل - كما جاء في آية الحجرات - أو إلى عرب وعجم وبيض وحمر ، كما جاء في الحديث الشريف . وقد يفهم من هذا الاعتراف التمايز بين الناس على أى صورة كان هذا التمايز . وقد يكون في هذا الفهم ما يساعد على تدعيم وجود المشكلة « التمييز العنصرى » بدلا من نفيها . وأبادر فأقول : نعم إن النصوص التي ذكرنا تحدثت عن واقع ، كان الناس في ظله يقيمون علاقاتهم على أساس من الموازين التي تواضعوا عليها ، متناسين وحدة الأصل الإنسانى الذى ينبغى أن تكون أساسا في العلاقات . وإذن فالاختلاف في شكل المجتمعات أو في لغتها التي تحدث بها أو في أعرافها وتقاليدها أمر لا يتصل بجوهر الإنسان وماهيته ، وكذلك الاختلاف في الشكل أو في اللون أو في المكان . وعلى هذا فلا ينبغى أن تتخذ هذه الأمور أساسا للحكم على الإنسان ، لأن هذه الأمور كلها أعراض غير ثابتة ولا دائمة ، والتمايز هنا غير الذى يتواضع عنه المؤمنون بالتمييز العنصرى .

إن الإسلام يقرر أن الناس ليسوا سواء من هذه الناحية - الناحية العرضية - وهذه مسألة اقتضتها سنة الاجتماع الإنسانى ، فالناس متفاوتون من حيث مواهبهم الإدراكية والخصائص الجسمية والخلقية كتنافهم في الرزق والقوة والضعف . يقول سبحانه « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق »^(٩) . وهذه الآية مثال للتفاوت في المسائل الأخرى ، « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا .. » ويقول الرسول عليه السلام « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » ، ومع هذا الإقرار ، لا يؤيد الإسلام أبداً النظم التي تضع الناس داخل المجتمع الواحد في سلم اجتماعى متفاوت ، على غرار ما رأيناه في « جمهورية أفلاطون » أو نراه في واقعنا المعاصر لدى بعض المجتمعات التي تدعى لنفسها التحضر والمدنية . كما أنه يرفض أيضاً أى نظام يعطى لشعب من الشعوب أو لجنس من الأجناس من الخصائص والمميزات التي يستأثر بها دون غيره . وستزيد هذه المسألة وضوحاً عند حديثنا عن الشكل الثانى ، الذى هو أحد الشكليين في معالجتنا لهذه القضية .

(٩) سورة النحل الآية ٧١ .

وعند النظرة الفاحصة يتبين لنا أن :

- وحدة الأصل الإنساني هي الأساس في الحكم على الإنسان .
- هذه الوحدة تنفي قطعياً التفاوت الذى يدعيه البعض - أفراداً أو جماعات - تأكيداً للنزعات خرقاء لا تقوم على أساس صحيح .
- اختلاف النواحي العرضية في الإنسان لا يبرر بأى حال من الأحوال اختلاف الإنسان في أصل نشأته وبالتالي لا يبرر قيام السلم الاجتماعى الذى يصب الناس في قوالبه حسب تلك الأمور العرضية ، سواء كان ذلك داخل المجتمع الواحد ، أو في المجتمع الإنسانى بصفة عامة .

وإذا كان الأمر كما ذكرنا فإن قضية وحدة العنصر الإنسانى لا يؤثر فيها اختلاف البيئات والأزمنة والمجتمعات ، لأن الفروع ليست إلا امتداداً للأصول ، تحول خصائصها التى تجعلها حافظة للنوع . وهذه سنة من سنن الله التى لا تتبدل ولا تتحول . من ثم نرى أن أى انحراف بالطبيعة الإنسانية عن هذه السنة إنما هو في الواقع محاولة متهافة لتغيير معالم الإنسان وتطاول على المنهج الإلهى في الخلق . ولا يتصور هذا إلا في غيبة العقيدة الصحيحة ، إذ الخطأ في التصور الصحيح للطبيعة الإنسانية إنما يرجع أساساً إلى الخطأ في الاعتقاد . من ثم رأينا أن منهج الإسلام في تصحيح الظواهر الاجتماعية المنحرفة ، إنما كان في المرتبة التالية ، بعد أن وقف طويلاً أمام تصحيح العقيدة . ولهذا كانت المرحلة المكية لتزول القرآن الكريم أطول نسبياً من المرحلة المدنية ، على الرغم من أن الأخيرة استوعبت كل النظم الاجتماعية التى تشكل البناء القانونى لقيام الدولة .

الإسلام يواجه المشكلة :

في تأكيد الإسلام الخفيف لوحدة الأصل الإنسانى - كما ذكرنا - أحد الشكليات لمعالجة المسألة . وكان يكفى ذلك لو كانت المسألة ليست من الخطورة بحيث لا تقتضى إلا بيان صحتها ، ولكن لما كانت المشكلة هنا أكبر من ذلك بكثير لأنها تحدد ما ينبغى أن تكون عليه العلاقات الإنسانية ، فإن الإسلام يعتمد على بيان نفي النقيض

بيان ما يترتب عليه من أضرار تمس حقيقة الإنسان من حيث هو ، كما يكشف عن النوازع وراء ظهور المسألة في صورتها المرفوضة .

والإسلام حين يتصدى لهذه المشكلة بالحل الحاسم والتوجيه الراشد يضع «الإنسان» من حيث هو ، في إطار طبيعته التي خلقه الله عليها . فبجانب وحدة الأصل الإنساني يتحدث القرآن الكريم عن الصفات التي تلاحق الإنسان حين يغيب عن وعيه توجيه الله سبحانه وتعالى ، فهو «كنود» و «ظلوم» و «جهول» و «يطغى» حين يرى نفسه استغنى ، وقد يبلغ الطغيان مداه عند استشعاره أن ما حصله من متع الحياة الدنيا إنما كان نتيجة علمه وتحصيله واجتهاده قال : «إنما أوتيته على علم عندى»^(١٠) ، وهو بجانب ذلك أيضا «كفار» وضعيف وحريص ، فهو إذا مسه الخير منوعا وإذا مسه الشر جزوعا ، كما أنه «أناني» يحب نفسه على سواه ولو كان أقرب الناس إليه «فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين»^(١١) .

تلك هي نوازع النفس البشرية ، وهي في الإنسان بحكم تكوينه ، فهو أخلاط من المادة والروح ، لذا كان مسرحا لأثر كليهما ، وقد أوتى بجانب ذلك العقل للمفاضلة والتمييز بين ما ينفعه وما يضره على المدى القريب والبعيد . كما أعطى الإرادة التي تختار عملا ما من بين البدائل التي أمامها وعلى الصورة التي يترجح له أنها أحسن من سواها ، والاستطاعة التي تخرج الأمر الممكن وتنفذه .

ولما كانت ضغوط الجوانب المادية في الإنسان أكبر من أن تتغلب عليها إرادته المحدودة ، فقد توالى عليه إمدادات السماء في كل حين تقتضيه الإرادة الإلهية : «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير»^(١٢) لكي تحذ من هذا الطغيان وتكفكف من غلوائه ، مذكرة إياه بقيمة ما يطغى به وما يطمع فيه ، وفي نفس الوقت داعية إلى إثبات الأبقى ، متخذة في ذلك منهج الإنذار والتبشير : «إنا أرسلناك بالحق بشيرا

(١٠) سورة القصص الآية ٧٨ .

(١١) سورة المائدة : الآية ٣٠ .

(١٢) سورة فاطر : الآية ٢٤ .

ونذيراً^(١٣) ، وهذه الآية الكريمة تعبر عن المنهج الذى واجه به رسل الله عليهم الصلاة والسلام أقوامهم . والإنذار لا يكون إلا حين يتشبث الإنسان بالجانب المادى فى حياته ، ببيان العاقبة والمصير الذى ينتظره فى الحياة الآخرة ، وهو مصير مؤلم مظلم فى مقابل طغيانه وجبروته ، « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى » . والتبشير إنما يكون حين يؤثر الإنسان جانب الخير على جانب الشر « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى^(١٤) » .

• وعند النظرة المجردة إلى تكوين الإنسان يمكن أن يقال : إن مظاهر الجانب المادى فيه وإن تعددت صورها - على الشكل الذى بيناه منذ قليل - إلا أنها لا تدنو من الجانب الروحى عنده . ولذا فإن الوضع الصحيح لها ، أن تكون ممارساتها فى حياة الإنسان خاضعة لسيطرة الجانب الروحى فيه ، وإلا أصبح مثل غيره من الحيوانات التى تمارس نشاطها الحيوى بدافع من المطالب المادية البحتة ، وحينئذ يسقط الإنسان عن مرتبته التى أرادها الله سبحانه وتعالى له .

من ثم نرى أن انحراف الانسان عن الوضع الصحيح له إنما هو « طغيان » ينبغى أن يواجهه ، والطغيان أو الظلم أو التجاوز مفاهيم متقاربة تعطى معنى الخروج عن الحد المرسوم لما ينبغى أن يكون عليه الإنسان ، ولا يغيب عن الذهن أن التجاوز هنا إنما مبعثه الجانب المادى وحده ، وإذن فعلاجه إنما يكون ببيان أنه ليس أهلاً لأن - يتجاوز به - فى مقابلة المعنى الثابت فى الإنسان وهو الجانب الروحى فيه .

والإنسان الذى دخل دائرة الإسلام بالإيمان به وبمبادئه وقيمه ، ينبغى أن يكون سلوكه وفق مبادئ هذا الدين ونظرته إلى الانسان ، ولا يفتأ القرآن الكريم يعالج قضية الإنسان على هذا الأساس ، مبيناً أن ممارسات الجاهلية التى كانت تقوم على التمييز بين قبيلة وأخرى أو بين قوم وقوم فى النسب أو المال أو الجاه إنما ينبغى أن تسقط ، ومظاهرها لا ينبغى أن توجد فى المجتمع الجديد ... « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عشتى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا

(١٣) سورة فاطر آية ٢٤ .

(١٤) سورة النازعات الآيات من ٣٧ - ٤١ .

أنفسكم ولا تنازوا بالألقاب بنس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون» (١٥) .

فالسخرية المنهى عنها في الآية مظهر من مظاهر الإحساس بالتمييز ، وهذا الإحساس الذى حمل صاحبه على السلوك فى ضوءه إن صح فى نظره قبل الدخول فى الإسلام - فى الجاهلية - فلا يصح بعده لأن موضوع المفاضلة فى ظل هذا الدين انتقل من نطاقه المادى إلى النطاق الروحى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (١٦) .

وكان هذا الجزء من الآية الكريمة مبدأ عام فى رسم التعامل بين الناس فى ظل المجتمع الإسلامى ، وهو مجتمع الإنسان بكل خصائصه ومطالبه . وعندما يعلل القرآن لهذا النهى يبرز أساس المفاضلة بينهم فى قوله تعالى «عسى أن يكونوا خيرًا منهم» أى عند الله بحسب أعمالهم الخيرة ، لا بأنسائهم وأحسابهم ، يستوى فى ذلك مجتمع الرجال والنساء . وبقية الآية تأكيد لهذا المعنى الرائع ، فاللمز والتناز بالألقاب لا يكونان إلا عندما تسود القيم المادية ، التى تتنافى مع روح الإيمان بالدين الجديد ، لذلك كان الإيمان بها والتعامل فى ضوءها عودًا بالإنسان من دائرة الإيمان الصحيح إلى مجال الفسق والبعد عن الفضيلة «بنس الاسم الفسوق بعد الإيمان» وتنتهى الآية ببيان أن هذا التصرف كبيرة تقتضى التوبة منها ، وكيف لا تقتضيها وفيها منافاة للإيمان الكامل من ناحية وتهديد لسلامة المجتمع الجديد ، باستعادة قيم المجتمع الجاهلى الذى تقوم العلاقات فيه على تصورات مادية من ناحية أخرى .

وفى موقف آخر يرسم القرآن الكريم للقضية صورة ذات بعدين : أحدهما وقع فى الجاهلية والآخر فى الإسلام : يقول تعالى : «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» (١٧) .

(١٥) سورة الحجرات الآية ١١ .

(١٦) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(١٧) سورة آل عمران : الآيتان ١٠٢ - ١٠٣ .

ففي مطلع الآية الأولى نداء للمؤمنين بتقوى الله التي هي موضع المفاضلة ثم تطلب منهم البقاء على الإسلام الصحيح حتى يموتوا عليه . ومعنى ذلك ألا يتركوا سبيلا يؤثر في موتهم على الإسلام من نعرات الجاهلية وقيمها ، من تفاخر بالأحساب والأوضاع الاجتماعية ، وإشغال نار الحروب تمجيذاً لتلك القيم . ونجى الآية الثانية أمره بالاعتصام بحبل الله ناهية عن التفرق تأكيداً لطلب الموت على الإسلام ، مذكرة إياهم بما كانوا عليه قبل الإسلام ، حيث كانت الحروب تثار بينهم لأنفه الأسباب وتستأصل شأفتهم ، لما يثار بينهم من عصبية وجاهلية ، حتى أوشكوا على الهلاك ، وكيف أن الإسلام جمع بينهم على معنى واحد ثابت هو «الإخاء» وكنتم بنعمته إخوانا ، هذا الإخاء الذي تسقط معه كل الروابط المادية .

والآية ٣ كما يقول جمهور المفسرين - نزلت في شأن الأوس والخزرج . حينما استنارهما يهودى حاقداً ، لما رأى أخوة الإسلام قد جمعتهم بعد تفرق وألفت بين قلوبهم بعد تمزق ، وقد أراد بذلك استدراجهم نحو ما كانوا عليه في الجاهلية من حرب وتقاتل . وقد أوشكت الفعلة أن تؤتى ثمارها التنة لولا إدراك السماء لهم بهذا الوحى ، الذى يضع أمامهم صورتهم في الجاهلية والإسلام حتى يوازنوا بين نتائج الموقفين ثم يدركهم الرسول صلى الله عليه وسلم حين يعلم بالأمر ، وقد أوشكت رماحهم أن تسل من أغمادها ، فيقول لهم «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم» ثم تلا الآية ، وينهى الموقف بإحساس الفريقين بأنهما كانا مخدوعين وأن العنصرية الجاهلية كادت تفتك بهم لولا أن تداركهم لطف الله عز وجل وتوجيه رسوله الكريم ، فندموا على إقدامهم على هذا العمل الشائن وجمع شملهم بالإيمان والإخاء من جديد .

وعلاج الإسلام لموقف ما ليس معناه أن ما قدمه من دواء إنما هو مقصور على هذا الموقف ، لا سيما إذا كان هذا الأمر متصلاً بالإنسان من حيث هو ، أى أنه خارج عن دائرة العلاج الخاص ، لذا نرى أن الآية الكريمة التي نزلت في شأن الأوس والخزرج ، إنما تبقى صورة حية لعلاج المشكلة في كل مصر وعصر . وما كان للقرآن أو للسنة أن يعالجا مسألة إلا في هذا الإطار ، لأن نصوصها متناهية والأحداث متغيرة متجددة ، والنوازع الإنسانية تتوارد في أشكالها على معنى الخير والشر ، اللذين يعتوران حياة الإنسان طول وجوده على ظهر هذه الأرض .

وحدة التكليف الإلهية مظهر لعدم التفاوت بين البشر :

تكليف الله سبحانه وتعالى إلى عباده المؤهلين لها تأخذ في ظروفها الطبيعية شكلاً موحداً لا تفاوت فيه ولا تمايز ، وما خرج على ذلك فهو استثناء يؤكد القاعدة ، وهو مرتبط بظروفه المؤقتة . وإذا كان هذا هو شرع الله إلى البشر ، فإن دلالة على عدم التفاوت في أسباب هذه التكليف ومقتضياتها ظاهرة بيئية . ولو كان هناك تفاوت مع وحدة التكليف ، لكان هناك أمر بما لا يطاق ، وهذا مما يتنافى قطعاً مع طبيعة الذات الإلهية ، لأنه سبحانه وتعالى يقول : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »^(١٨) .

وقد يقول قائل : إن دائرة الحديث مقصورة على المؤمنين ، بحيث يمكن للقارئ أن يقصر حكمه عليهم أخذاً من هذا الحديث ، والجواب هو : أن الحديث عن الإنسان المؤمن إنما هو حديث عن « الإنسان بعيداً عن المؤثرات المادية التي تشغله عن معنى الإنسانية فيه . ولهذا نلاحظ أن القرآن الكريم لا يسلب عن « الإنسان » هذا الوصف وهو في مقام العتاب « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك »^(١٩) أو في بيان المصير « والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »^(٢٠) .

المواجهة التطبيقية للمشكلة :

لقد انتقل إلى دائرة الإسلام الذين آمنوا به . دون قهر أو جبر ، لأن من قواعد الإسلام الأساسية في مواجهة الخصوم أنه « لا إكراه في الدين »^(٢١) « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »^(٢٢) وكان من مقتضى هذا الإذعان الاختيار أن يتقبل المسلم التصور الجديد للإنسان وميزان تقويمه . ولكن الجاهلية بتصوراتها قد تلح عليه إلحاحاً حين يخف

(١٨) سورة البقرة : من الآية الأخيرة ٢٨٦ .

(١٩) سورة الانفاطار : الآيتان ٦ ، ٧ .

(٢٠) سورة العصر .

(٢١) سورة البقرة من الآية ٢٥٦ .

(٢٢) سورة الكهف من الآية ٢٨ .

الإيمان من نفسه فتظل من جديد لإثارة بعض القيم التي كان ينبغي أن تدرس . فهذه أبو ذر الغفاري ، تَنِدُّ منه مرة قولة من أقوال الجاهلية حين عير « بلالا » بأُمَّه قائلًا : « يا ابن السوداء » ويسمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القولة الشنعاء فيشتد غضبه وينهر أبا ذر قائلًا : « طف الصاع طف الصاع » أى أنك تجاوزت بالأمر حده عند تفوهت بهذه الكلمة ثم عقب على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام « إنك امرؤ فيل جاهلية ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح » ولم ير أبا ذر تكفيرًا لتصرفه هذا إلا أن يضع خده على الأرض ويطلب إلى بلال أن يطأه بنعله

وتتضح المواجهة التطبيقية للمشكلة أيضا في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية » وسواء أكان هذا الحديث إخمادا لنار العصبية الجاهلية حتى لا تؤتى ثمارها الضارة في المجتمع . ومواجهه لأولئك الذين يبتغون الفتنة ممن ظلت رواسب الجاهلية في أعماقهم ، أو كان تأكيداً . ينبغي أن يكون عليه القوم من الإذعان لقيم الإيمان والإخاء فيه ، فإنها علاج للمساء على أية صورة كانت ، وهو توجيه للمؤمنين لأن يكون تناصرهم وتقاتلهم بدافع إحقاد الحق ، والحق وحده دون سواه . ولا شك أن المبدأ الذي يجعل الحق أساس العلاقات بين أفراد المجتمع ، إنما يهدف إلى استقرار هذا المجتمع وأمن أفرادهِ . وإذن فلا صرا ولا أحقاد ولا ضغائن وإنما هو وحدة ومحبة وإخاء وتناصر في الحق وللحق .

ثم يسمع الرسول صلى الله عليه وسلم الأنصار وهم يتنادون : يا للأنصار والمهاجرين كذلك يتنادون يا للمهاجرين . أى أن الفريقين يسترجعان عصبية الجاهلية . فيقول لهم : « دعوها فإنها منتنة » ثم قال : « ألا ما بال دعوى أهل الجاهلية ألا ما بال دعوى أهل الجاهلية » .

والنصوص والشواهد كثيرة في هذا المقام . اجتزأنا منها هذا القدر ، لنبين أذ* الاسلام حين تناول المسألة في جانبيها : وهما تأكيد وحدة الأصل الإنساني ثم نقض الظواهر المخالفة لذلك ومواجهتها ، إنما يبتغى الخروج بالإنسان من النظرة الضيقة التي يوزن بها ، إلى تلك النظرة الرحبة الواسعة الممتدة التي تنظر إليه بعيداً عن أعراضه التي لا يملك لها دفعا . وأى مفارقة يمكن أن تكون بين النظرتين ؟ إن نظرة الإسلام إلى الإنسان تسقط من حسابها تلك الفوارق المصطنعة من جنس ولون وعرق ، تلك الفوارق التي

ولدتها السياسة الخرقاء . وذلك لأنها نظرة تفرق ولا تجمع ، وتمزق ولا توحد ، وتباعد ولا تقرب . فأين هي اذن من نظرة تقيم الترابط بين الناس والعلاقة فيما بينهم على أساس من العقيدة الصحيحة التي لا ترتبط بجنس ولا لون ولا عرق ؟ إنها نظرة ممتدة في نطاقها الزماني والمكاني لكي تكون الظل الواقى . ومرفاً الأمان الذى تأوى إليه الإنسانية كلما عقدت حياتها أنظمة البشر القاصرة ، ثم تبقى على الإنسان وكرامته « الإنسانية » كأساس للعلاقات إذا لم يهتد إلى قيمة هذه العقيدة .

ولا يخفى على كل ذى لب أن هذا هو موقف الإسلام من قضية « التمييز العنصرى » وأنه إذا وجدت في ظل المجتمع الإسلامى في بعض أطواره صور ليست على هذه الشاكلة ، فالإسلام - من حيث هو دين الله - منها برىء ولها رافض ، وإثمها - والحالة هذه - على من أثارها ومن تهاون في مواجهتها من الحكام والمسؤولين .

المشكلة في ظل الحضارات :

تعطى المقارنة للدارس بعداً نفسياً وعقلياً أكثر من تقييمها من وجهة نظر واحدة . لذا تظهر القيمة الحقيقية للإنسان في نظر الإسلام إذا ألقينا بعض الضوء على جوانب « المشكلة » التي نحن بصدددها في ظل الحضارات القديمة منها والحديثة .

ففي ظل الحضارة اليونانية . وفي عصر ازدهارها ، رأينا النزعة العنصرية بارزة واضحة . فالشعب اليونانى هو سيد الشعوب على الاطلاق ، واليونانيون هم دون سواهم كاملو الإنسانية . وقد صاغ أرسطو هذه الفكرة في شكل نظرية بيولوجية اجتماعية ، فقد ذهب إلى أن الآلهة قد خلقت فصيلتين من الأناس : فصيلة زودتها بالعقل والإرادة وهى فصيلة اليونانيين ، وفصيلة لم تزود إلا بقوى الجسم وما يتصل اتصالاً مباشراً بالجسم وهم البرابرة - عدا اليونانيين - وقد فطرتها الآلهة على هذا التقويم الناقص ليكون أفرادها عبيداً مسخرين لخدمة الفصيلة المختارة (٢٣)

وبناء على هذا التقسيم في نظر أرسطو تتحدد وظيفة كل طبقة بالنسبة للأخرى ، وواجبات وحقوق كل منها قبل الأخرى . فمن حق اليونانيين استغلال غيرهم في حدود

(٢٣) من كتاب أرسطو في السياسة : نقلاً عن المساواة في الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافي .

طبيعتهم ، ومن واجبهم أن يعملوا بكل الوسائل على أن يردوا غيرهم - البرابرة - إلى المنزل التي خلقوا في دائرتها ، ومن واجب هؤلاء أن ينفذوا كل أوامر أسيادهم . ولا يمكن أن يستقيم نظام المجتمع إلا بناءً على هذا التقسيم^(٢٤) .

وحديث المؤرخين عن استخدام اليونانيين لهذه النظرية لا ينكر ، فقد استولوا على شعوب كاملة ، واسترقوا أهلها ، كما فعل الاسبرطيون مع أفراد الشعب « الهلياني » فقد تحول هذا الشعب بأسره إلى أرقاء خاضعين للشعب الإسبرطي ، وليس هذا غريباً بالنسبة لشعب يرى نفسه سيد الشعوب وأن من دونهم له عبيد أى عبيد بل إن الأمم قد تجاوز هذا الحد ، فقد عمد السادة في كثير من الأحيان إلى سحق أعداد غفيرة من العبيد حتى لا يتكاثر عددهم مما يشكل خطورة على الدولة ، كما قيدت القوانين اليونانية تحرير أفراد الشعب اليوناني لما تحت أيديهم من عبيد ، بحيث جعلت هذا التصرف في أضيق الحدود وفي حالات خاصة .

ولم يكن الوضع في ظل الحضارة الرومانية بأحسن حالاً مما كانت عليه الحضارة اليونانية بالنسبة للأفراد والشعوب الأخرى ، فالعنصر الروماني الذي ورث الحضارة اليونانية وتعاليم اليونان ، وامتد نفوذه شرقاً وغرباً ، كان يعترف بعنصريته ، حتى في ظل الديانة المسيحية . لأن هذا الدين الجديد لم يترك إلا أثراً ضئيلاً لا يكاد يذكر في وجهات النظر المقبولة لدى كبار اللاهوتيين فيها^(٢٥) .

ولبست هذه النظرة ثوباً قانونياً ، فقد تضمن قانون الامبراطور « جوستنيان » نصوصاً تفصل في الحقوق والواجبات وشئون التعامل والعقود بين أصحاب السيادة من الرومان ومن تفرض عليهم السيادة من غيرهم . ومن هذا القانون : إن غير الرومانيين من رعايا الإمبراطورية ليس لهم حقوق الرومانيين ، فالسيادة للرومان وحدهم ، وأما من سواهم فهم طبقة تفرض عليهم السيادة^(٢٦) .

(٢٤) نفس المرجع .

(٢٥) سيد أمير على : روح الإسلام ص ٢٤٠ .

(٢٦) الشيخ محمد أبو زهره : تنظيم الإسلام للمجتمع ص ٦ .

ويكفي أن يكون الرقيق في ظل هذا القانون يعتبر شيئاً لا شخصاً ومعنى ذلك أنه ساقط عن رتبة الإنسانية وأنه - بناء على ذلك - لا يحق له تكوين أسرة . وليست له ذمة مالية ولا يملك ولا يستدين لأنه ملك لسيده . يدل على ذلك كله ما جاء في قانون جوستينيان : « لا يعامل العبد معاملة الآدميين بل يعامل معاملة الأشياء التي سلبت الإرادة عنها وليس على السيد مسئولية فيما يفعل مع عبده فإن ضربه أو قتله فلا عقوبة عليه فيما يفعل . وإذا ارتكب العبد جريمة تضاعف له العقوبة التي ينص عليها القانون (٢٧) » .

وفي الحضارة الهندية تتلاحم العنصرية « الآرية » مع التفاوت الطبقي لترى الإنسان في أسوأ صورة بتخليها العقل . وقد ظهرت هذه الصورة في القانون المعروف بقانون « منو شاستر » وينقسم سكان الهند في ظل هذا القانون إلى خمس طبقات : البراهمة . وهم في قمة السلم الطبقي . والجنودال وهم أدناه . وهؤلاء لا يفرقون عن الحيوانات في شيء . وبينهما طبقات ثلاث : الجند . والحرفيون . والخدم . وفي القانون المذكور ، أن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه . وشترى « رجال الحرب » من سواعده . وریش (الحرفيون) من أفخاذه . والشودر (الخدم) من أرجله . وبناء على هذا التقسيم تتحدد وظيفة كل طبقة . وليس بين هذه الطبقات منافذ . بل هي مغلقة . وإذن فلا يمكن لطبقة أن تغير من وضعها بالنسبة للطبقات الأخرى (٢٨) وظلت هذه الظاهرة على هذا الشكل حتى يومنا هذا .

المشكلة في ظل اليهودية والمسيحية :

يذكر القرآن الكريم عن اليهود زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه . ويرد عليهم هذا الزعم مبينا أنهم لو كانوا كذلك فَلَمْ يعذبهم بذنوبهم . وينتهى إلى بيان أنهم بشر عاديون كسائر خلق الله من البشر . ولكن أبت عليهم نزعته العنصرية إلا أن تروج لهذه الظاهرة فادعوا أنهم شعب الله المختار وأن من سواهم ليسوا إلا خدماً لهم . وعلى الرغم من أن العنصرية الحديثة تنطلق من فكرة المحافظة على السلالة الآرية وبقاء

(٢٧) الدكتوران : على عبد الواحد وحسن سفيان : قصته الملكية في العلم ص ١٠٨٠ .

(٢٨) توماس ارتولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٢٧ .

عرفها نقيا من الاختلاط بالعروق الأخرى وبخاصة السامية - واليهود في مقدمتهم - إلا أننا رأينا أن اليهود كانوا أسبق في الزمان من حيث تشبههم بالترعة العنصرية (٢٩) . وقد انعكس ذلك على تصرفاتهم وآمالهم في استرقاق الشعوب والاستيلاء على مصائر العالم .

و- جاء في التوراة نصوص تؤكد العنصرية بكل معانيها . مما يدل دلالة واضحة على أنه من المستحيل أن نعزو مثل هذه النصوص إلى الله رب العالمين . من ذلك . جاء في سفر التثنية : « حين تقترب من مدينة لكي تحاربها ، استدعها إلى الصلح فإن أجابتك وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعب لك ، وإن لم تسلمك فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلى يدي فاضرب جميع ذكوره بحد السيف وما بقي فهو غنيمة لك » كما جاء في التلمود أن جميع الأناس من غير العنصر اليهودي إنما هم حيوانات في صورة أناس (٣٠) . كما ورد في سفر التكوين نص لا يشك عاقل في وضعه على صورة محلة بكهال الله تعالى ورسله ، يقرر هذا النص أن نوحا عليه السلام قد شرب مرة نبيذ العنب الذي غرس كرمه بيده بعد الطوفان دو أن يعلم أنه مسكر ، ففقد الوعي ، وانكشفت سوءته فرآه ابنه حام على هذه الصورة فسخر منه ، وحمل الخبر إلى أخويه سام ويافت ولكن هذين كانا أكثر أديا من أخيه فحملا رداء وسترا أباهما وهما مستظهران له حتى لا يقع بصرهما على هذه الصورة ، أفأق الأب علم ما كان من حام وأخويه لعن كنعان بن حام ودعا غليه وعلى نسله . بعده أن يكونوا عبيدا كعبيد سام ويافت (٣١) .

وقد سجل القرآن الكريم بعض افتراءاتهم وتصرفاتهم الماكرة مع غير أب عنصرهم ، حيث إنهم يعتبرون من سواهم أميين ، لا يفقهون شيئا من أمور الدين ، وبين أن هذا كذب وبهتان . قال تعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأتوا بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما

(٢٩) عمر عودة الخطيب : نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصر ص ٧٤ .

(٣٠) نفس المصدر .

(٣١) د. علي عبد الواحد وافي المساواة في الإسلام ١٦ .

ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» (٣٢)

والحركة الصهيونية الحديثة ليست إلا امتدادا لهذا التصور الخاطي الذي امتلأت به أسفار العهد القديم وكتابهم الديني الآخر «التلمود» وبروتوكولات حكمائهم تنضح بالملق والازدراء لكل من ليس يهودي فقد جاء فيها : «أن الأميين - غير اليهود - كقطيع من الغنم واننا الذئاب فهل تعلمون ما تفعل الغنم حين تنفذ الذئاب إلى الحظيرة ؟ انها لتغمض عيونها عن كل شيء وإلى هذا المصير سيدفعون . «بل إن وصف الأمي بالخطير بما فاضت به البروتوكولات (٣٣) .

والتصور العنصري في المسيحية وإن خفت حدته عما كان عليه عند اليهود . إلا أن الأساس لا يزال قائما عندهم ، ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن القديس بولس - وهو الذي ظهرت في كتاباته لبعض الرسائل هذه النزعة - كان يهوديا متشعبا بالفكرة قبل أن يتنصر ، وأنها ظلت ملازمة له حتى بعد دخوله النصرانية . لذا رأينا في بعض كتاباته الإقرار بتقسيم البشر إلى سادة وعبيد . وأن طاعة الصنف الثاني - العبيد - للرب المسيح إنما تكون في صورة تنفيذ أوامر سادتهم ، وهذه هي رسالة لأهل مدينة أفسس : «أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم بخوف ورعدة لا لخدمة العين كمن يرضى الناس ، بل كعبيد للمسيح» .

فإذا أضفنا إلى عنصرية «بولس» التي تأصلت في نفسه وهو يهودي أن المسيحية كانت في عصره خاضعة لسلطان الإمبراطورية الرومانية ، وهي - كما ذكرنا من قبل - لا تقر بالحرية ونقاء العنصر لغير الروماني لاستنتاجنا من موقفه أنه كان يرضى نزعة في نفسه كما كان يرضى السلطة الحاكمة .

ولقد روجت بعض المجامع من بعده هذا الرأي ، حتى أصبح من تعاليم كثير من الكنائس أن الرق كفارة عن ذنوب البشر يودها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم ، وقد دعمت هذه القضية الخطيرة من قبل بعض المفكرين من الفلاسفة ،

(٣٢) آل عمران ٧٥ .

(٣٣) بروتوكولات حكماء صهيون ص ١٥٩ .

فكان ذلك سنداً عقلياً لها بجانب السند الدينى المزعوم . يقول القديس توما الإكوينى : «إن الطبيعة خصصت بعض الناس ليكونوا أرقاء» . وقد حاول هذا القديس الفيلسوف تدعيم فكرته هذه بالشواهد من حوله ، حيث ذهب إلى أن العلاقات فى الكون والحياة تدل على أن بعض العناصر طبعت لخدمة عناصر أعلى . وليس الإنسان بدعا فى ذلك ، بل تجرى عليه قوانين الطبيعة^(٣٤) .

وإذا كان القديس «توما الإكوينى» ممثلاً للفكر الدينى الفلسفى فى العصور الوسطى بالنسبة لقضية التمييز العنصرى . فإن هذه النزعة لا تزال تباركها الكنيسة فى حياتنا المعاصرة . فالآلام الغير إنسانية التى كان يقاسمها الزوج المساكين فى الولايات الجنوبية من أمريكا الشمالية قبل حرب تحرير العبيد ، والتعذيب الرهيب الذى يمارسه تجار الرقيق العدوانيون حتى عهد قريب ، كل هذه تقدم لنا صورة سيئة كاملة عن آلام الرقيق أثناء السيادة المسيحية^(٣٥) .

وما قدمه الزوج الأمريكيون للحضارة الأمريكية المعاصرة من خدمات إنما كان منظوراً إليه بهذه النظرة العنصرية ، التى هى فى نظر الكنيسة المسيحية أمر واقع لا يمكن رده ، تقول الكاتبة الزنجية الأمريكية «مارجريت جوست» «ولو أننا حاولنا موازنة الدّين الذى تلتزم به البلاد نحو الزوج فى الخدمات التى أدوها ، واليد العاملة التى قدموها . لوجدنا الزنجى فى حساباتهم مازال مديناً للفوائد الجلى التى اكتسبها من حضارة الرجل الأبيض . والنصرانية تقدم التوازن فى هذا الموضوع ، فلقد حملت الكنيسة للزنج هدهدة روحية واستندت فى كرمها الأخلاقى إلى ترسيخ قواعد العبودية وجعلها واقعا معقولاً لا يرد^(٣٦)» .

وإن الممارسات التى نسمع عنها اليوم والتى تتعامل بهذا الأسلوب الإنسانى فى كثير من دول العالم ، والتى لم تنحسر بعد ، حتى فى ظل التحرر لكثير من الدول والشعوب ، الذى لا يعدو أن يكون تحرراً شكلياً ، تحاول أن تجد لها تبريرات

(٣٤) عباس العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٠١ .

(٣٥) سيد أمير على : روح الإسلام ص ٢٦٠ .

(٣٦) مارجريت جوست : السود فى أمريكا ص ٢٩ .

علمية . وما هي من العلم في شيء . لأن الذين حاولوا تأصيل نزعة التمييز من العلماء والمفكرين وعلماء الأجناس البشرية وعلماء اللغات ليسوا متحررين من ضغوط أممهم الغالبة لتبرير استحقاقها لهذا التفوق . كما أنهم من ناحية أخرى ليسوا متحررين من ضغوط دخالهم . لأنهم من بنى جلدة هذه الأمم المتفوقة .

وإذا كان الأمر كذلك فما قيمة « النزعة العنصرية » في معيار النقد المتحرر ؟

التمييز العنصري والنقد العلمي :

قامت قضية « التمييز على عدة افتراضات منها :

- ١- إن العروق مختلفة ومتباينة ، وينشأ من هذا اتصاف كل منها بصفات محدودة معينة تميز بينه وبين غيره .
- ٢- إن هناك ارتباطا وثيقا بين الصفات الجسدية والصفات الروحية والعقلية في الإنسان بحيث يمكن الاستدلال من وجود صفة جسمية معينة في شخص من عنصر معين على وجود صفات ذهنية مقابلة لها في هذا الشخص .
- ٣- إن العروق ليست مختلفة ومتباينة فحسب ، بل هي متفاوتة وأن بعضها أفضل من بعض وأرقاها وأنقاها جميعا العرق « الآري » وأدناها وأكثرها انحطاطا « زنوج إفريقيا »^(٣٧) .

وقد جاء كتاب « العرقية إزاء العلم » ليرد هذه الافتراضات ، ويبين تهاافتها أمام الحقائق التاريخية المقررة ، وفي ضوء التحليل العلمي المحايد ، ولينتهي إلى أن جميع أمم العالم خليط من عناصر مختلفة ، وأن ما يقال عن اتصاف عرق ما بصفات محدودة تميزه عن غيره ، لم يصح علميا ، فليس هناك جماعة بشرية يتصف جميع أعضائها أو معظمهم بالصفات الجسدية نفسها . ومن أمثلة ذلك : أنه قد احتل انجلترا منذ أقدم العصور جماعات بشرية مختلفة منها « الكرمانيون » و« الشاليون » وشعوب البحر المتوسط . ثم اجتاحت الجزيرة فيما بعد « الساكسونيون » و« النرويجيون » و« الهولنديون »

(٣٧) عمر عودة الخطيب : نظرات إسلامية في مشكلة التمييز العنصري ص ٨٥ .

و«النورمانديون» فكيف يمكن الكلام عن عرق «الانجليزى صاف» ، إن انجلترا هي بعكس ذلك ، مثل بارز على الفسيفساء العنصرية (٣٨) .

وما قيل عن انجلترا يمكن أن يقال على أى دولة أخرى ، مثل «فرنسا» ، طالما أن الهجرات والتزاوج بين السلالات المختلفة غير محكومين ، وإذن فنقاء العناصر وعدم اختلاطها ، والذي يعد مدخلا إلى تدعيم نزعة «التمييز العنصرى» وهم «الأوهام» . وهنا يسقط الافتراض الأول من الافتراضات الثلاثة السالفة .

والافتراض الثانى لا يقل فى تهافته عن الأول ، ذلك لأن مقياس الذكاء لا تستطيع أن تحدد ذكاء شخص أو جماعة إلا فى وقت ممارسة هذه العملية ، ولا يمكن اجرائها بعيدة عن المؤثرات البيئية والخبرات المكتسبة ، وإذن لا يصح مقياس الذكاء للتمييز بين العروق من حيث صفاتها الأصلية الدائمة الثابتة ، وإنما يكون لبيان الفروق الفردية فى وقت ما وفى وسط معين محدد .

وأما دعوى أن هناك عروفا أفضل من غيرها ، وأنها تأخذ هذا التفوق ، بإبداعها الحضارى ، فمجرد عليها ما يقرره التاريخ من أن معظم العروق قد أبدعت حضارات مستقلة خاصة بها ، فالعرق الأصفر أنتج الحضارة الصينية والعرق الأسمر أوجد الحضارة الهندية والعرق الأحمر أنتج حضارة «المكسيك» ، وهى حضارات معروفة وذات تاريخ عريق . ولا يستطيع أحد أن يزعم أن هذه الحضارات هى من صنع العرق الآرى وحده . فأى مبرر بعد هذا لأى حكم يرى وضع عرق فوق عرق ، وتفضيل جنس على جنس والزعم بأن هذا متفوق وذاك منحط ؟ (٣٩)

وقد أثبتت التجارب التى قام بها الدكتور «أمون» أن فكرة العرق النقى وهم لا يستند إلى أساس من الواقع . كما سجلت نفس النتيجة بحوث العالمين «أرتيزيوس» و«فورست» التى أجريها على قطاع من الشباب السويدى المطلوب للتجنيد ، اذ تبين لهم أن الصفات المخصصة للجنس الشمالى - الذى تقع السويد فى نطاقه لا تجتمع إلا لخمسة آلاف شاب فقط من خمسة وأربعين ألفا أجريت عليهم التجربة .

وتوالت التجارب والبحوث الإحصائية بعد ذلك ، وكلها تنتهى إلى ما عبر عنه العالم «كوماس» حين قال : «وباختصار فإن جميع البراهين البيولوجية والأنثروبولوجية والتطورية والوراثية تدل على أن المميز العنصرى بالاستناد إلى اللون إنما هو وهم وخرافة ، تفتقد أى طابع علمى جدى ، وإن سفالة الملونين العنصرية المزعومة باطلة كذلك . إن الوسط والظروف : السياسية والاقتصادية والاجتماعية الظلمة وحدها هى التى تبقى هذه المجموعات البشرية فى حالتها الحاضرة»^(٤٠) .

لقد أثبت العلم الحديث أن أنواع وفصائل الدم للبشر جميعا مع اختلاف أماكنهم وأزمنهم وقومياتهم مشتركة بينهم بدون تمييز بين جنس وآخر ولون وآخر . وإذا كان الفحص المجهرى قد أثبت اختلافات نطفية بين خلايا بشرتهم ، فإن هذه الاختلافات فى طريقها إلى الاضمحلال السريع^(٤١) .

هذه بحوث وتجارب ونتائج قام بها نفر من العلماء والباحثين . الذين درسوا المشكلة بعيداً عن الرؤية المتعصبة التى درست المسألة من خلالها لدى غيرهم من أذعاء العلم . وأمام هذا تسقط كل دعاوى التمييز على امتداد التاريخ . ومهما حاول هؤلاء لتزعيتهم أن تلبس ثوب العلم فليسوا بمستطيعين ، وإذن فممارسات التمييز الواقعة اليوم لا يحكمها منطق العلم والعقل ، ولا الدين - وهو الإسلام وحده فى نقائه وصفائه - وإنما تحكمها فلسفة القوة والادعاء بالتفوق ، وهى فلسفة تهدد الحضارة الإنسانية الرفيعة ، التى من شأنها أن تعلى قدر الإنسان من حيث هو إنسان ، كما خلقه الله ، إذا استلهمت هداية الله كما أبرزها الإسلام .

ويبقى الإسلام وحده هو النظام الإلهى المتفرد الذى يجعل الإنسان فى عموميه وشموله وبجوهره - لا بأعراضه - محور حديثه وتوجيهاته ، وتبقى قوانين البشر التى تشرع لصالح الإنسان فى المحافل الدولية - كالأعلان العالمى لحقوق الإنسان - فى واقعها النظرى فقط ، لا ترقى إلى قدسية التشريع الإلهى الذى يقرر أن الجانب النظرى والجانب التطبيقى للقانون الإلهى إنما يشكلان وجهين لعملة واحدة .

(٤٠) جون كوماس : العرقية ازاء العلم ص ٢٨ .

(٤١) د. بويد شيفر : القومية . عرض وتحليل ص ٥٢٢ .